القدسُ ...
عاصمةُ الشعب الفلسطيني الأبدية

• رئيس التحرير

مدينةٌ مُكتظَّةٌ بالرموز الثقافية: السماوية، والأرضية. سماؤها صافيةٌ، هادئةُ الزُرقة، توحي بالطمأنينة. أسوارُها العتيقة، وأحجارها، وترابُها، يوحي بالعراقة التاريخية. أساطيرها لا تُحصى. ماؤها يُسرسبُ في القيعان، لا يُسافر بعيداً. أسواقُها تعبق برائحة عطرة، تُعشش في الروح والدماغ. زيتونها رومِيٌّ كنعانيٌّ عريقٌ، وزَّع فسائلَه على العالم. حاراتُها من فلفل العشق. مسجدُها الأقصى، أوَّلُ القبلتين، وثالثُ الحرمين الشريفين، ومحطُّ أنظار مُسلمي العالم. كنيستُها القِياميَّة، مركز قلوب المسيحيين في العالم كله. (الخليلُ) شقيقتُها، وحارستُها في الأزمنة الصعبة، فما ذُكرتْ الخليلُ، إلاّ مرتبطةً بالقدس. (بيت لحم)، ابنتُها التي تحمل ملامحها. (رام الله)، فرعٌ من شجرتها. (أريحا)، مَشْتاها، ومزرعتُها العتيقةُ منذ تسعة آلاف عام (أقدم مدينة في العالم). زراعةُ العالم، ولدتْ في أريحا. محيطُها القريب: (نابلس، طولكرم، جنين، حيفا، يافا، عكّا، عسقلان، أسدود، الناصرة، مرج بن عامر، شمالاً، وغرباً. وغزَّة، وبئر السبع، وغيرها)، محيطٌ يتمركزُ، ويتعاشقُ، ويتعالقُ مع القدس، مركز الكون، وعاصمةِ السماء والأرض، والجذور. عاصمة العالم الروحية والثقافية، حيث تتعدّد الثقافات والأعراق والأديان والرموز والتواريخ والأساطير، وهي قبل كل شيء، عاصمة العرب، وعاصمة الشعب الفلسطيني الأبديَّة. هكذا يقول التاريخ: قاومت القدسُ الغزاةَ، عبر التاريخ، ولفظتهم خارج جسدها، واحداً تلْو الآخر، وكانت صَبورة وما تزال. تقاوم بصمت أحياناً، وتستغيث بأشقائها، حيث تعلو صرختها الجارحة، دون أن يستمع لصراخها أحدٌ في زمن العجز والتواطُؤ. كأنَّها خُلقتْ لمقاومةٍ أبديَّةٍ لا تنتهي: (ليت للبرَّاق سيفاً ...): كامرأةٍ أسيرةٍ هي القدس، تنادي، وتنادي، فيكثر الطُرشان من أبناء قومها، رغم أنَّهم يعرفون قداستها، ويتباهون بأنها: مَسْرى محمد صلى الله عليه وسلم، وقبلتُهُ الأولى، ومعراجُه إلى السماء، وفيها قاوم (المسيح التلحمي) أعداء تعاليمه، فولدتْ فكرةُ (الفداء)، بصفتها أرقى حالة إنسانية في مجال التضحية. القدس مدينة الرموز والحضارات، مدينةٌ كنعانيةٌ فلسطينيَّة، منذ (3200 ق.م) على الأقل، والفلسطيّون القدامى فيها، هم فرعٌ أصليٌّ من القبائل الكنعانية. كانوا فيها منذ (الإنسان منتصب القامة)، و(الإنسان العاقل)، قبل خمسين ألف سنة، وما يزالون يحملون ثقافتهم الكنعانية، التي قدَّمت (الأبجدية الأولى) في مرحلتها الأولى، قبل أن تتطوَّر في (أوغاريت، وجبيل)، وتصل مرحلة النضج، ومنها ولدت لغات العالم، يقول (Cowley)، إنَّ الأبجدية الكنعانية، في مرحلتها الأولى، ولدت في جنوب فلسطين، لأنَّ مخترعي هذه الأبجدية: «قومٌ بدائيون من جنوب فلسطين، جعلتهم السلطة الفرعونية يعملون في مناجم الفيروز في سيناء»، ويجزم (sprengling)، بأنَّ مخترعي الأبجدية الكنعانية (السينائية)، هم: «من أرض سعير، أي

بلاد أدوم، بين البحر الميت، والبحر الأحمر». وينتقد (رمزي بعلبكي)، النظرية الكريتية (جزيرة كريت)، التي قال بها (Evans)، الذي يفترض « أنَّ الفلسطيين، نقلوا الألفباء من كريت إلى فلسطين في القرن الثالث عشر ق.م، وأنَّ الكنعانيين الفينيقيين بدورهم، نقلوا هذه الألفباء عن الفلسطيين»، حيث يرى بعلبكي أنَّ ما يُنسب إلى الفلسطيين من نقل الكتابة من كريت إلى فلسطين، أمر غير واضح، لأنَّ تاريخ الألفباء يرجع إلى ما قبل القرن الثالث عشر ق.م. ومن ثم، فإنّ (القدس) كانت تتكلّم الكنعانية، منذ (3200 ق.م)، وربّما كانت تكتب حروفها منذ القرن الثامن عشر ق.م، لأنَّ القدس، كانت جزءاً من جنوب فلسطين الأدوميَّة، ولأن مملكة أدوم، كانت تشمل جنوب القدس، وجنوب شرق الأردن، أي: بيت لحم، والخليل، وبئر السبع، والبتراء، وإيلة (العقبة). وبحسب الوثائق المصرية، فإنَّ القدس، كانت تُسمى (أوروسالم)، أو (أورشلم)، نسبة للإله (شلم)، أو (مدينة يَبوس)، وهي قبيلة كنعانية. وقبل اليبوسيين، سكن القدس، الكنعانيون الأموريون، والكنعانيون الهكسوس. يقول المفكر الليبي علي فهمي خشيم: إنَّ الباحثين وصفوا الهكسوس بأنهم: «كنعانيون، أو فلسطيّون، لكنَّ مانيثون، قال بأنَّهم كانوا عرباً، وأنهم هم من بَنَوا أورشاليم». وتؤكد عالمة الآثار (كينيون) أنَّها « وجدت قبراً في جبل الضهور (أوفل)، في القدس، يحتوي على فخّار، يرجع تاريخه إلى أواخر الألف الرابع، ق.م، واكتشفت أحد عشر قبراً في القدس على جبل الزيتون (الطور)، تنتمي إلى المرحلة – 3200 – 2000 ق.م». أمَّا في النصوص الأشورية، فقد ورد اسم (أورشاليمو)، أوَّل مرّة في نصّ سنحاريب، عام 701 ق.م. ويرى الهولاندي (دوغيوس) أن «أصل الأموريين، يجب أن يُفهم بأنه، فلسطيني المنشأ». ولذا فإن (تلّة موريا) في القدس قد تكون منسوبةً إلى الأموريين، رغم أن خزعل الماجدي يرى أن « موريا، هو اسم سابق لاسم بلاد كنعان، وهو يطلق على فلسطين».

كان هيرودوس الكبير (حَرَدْ الأدومي العربي) ملكاً على القدس، ثمَّ أسس مع أبنائه، مملكة فلسطين الأدوميّة (37 ق.م – 100 م). كان هيرودوس الكبير فلسطياً أدومياً من عسقلان، وكانت أمُّه (أميرة نبطيّة) من البتراء. وقد حكم ابنه هيرود أنتيباس، شرق الأردن (بيريا).

أسسَّ حَرَد (هيرودوس الكبير)، أوَّل هيكل في القدس، وهو عبارة عن (مُجمَّع أديان)، كما يجمع الباحثون، حيث اشتمل هذا الهيكل على مجموعة من الآلهة (الكنعانية الفلسطيَّة، واليونانية الرومانية، واليَهْويَّة). وكان هيرودوس الكبير، حسب فراس السوّاح: «مواطناً عالمياً، يؤمن بوحدة الأديان والثقافات». وكانت الطائفة (اليَهْويَّة) الفلسطيَّة وهم (عَبَدةُ الإله يهوه) في القرن الأول قبل الميلاد، تشكّل ما نسبته (6%) من سكّان القدس، حسب بعض الباحثين. وبقيت كذلك، حتى عام (70م)، حين طردها الرومان من القدس. وكانت الطائفة اليهويَّة، تكره هيرودوس الكبير، وكان يكرهها، بسبب انشقاقاتهم وصراعاتهم، وتآمرهم ضدّه، فقد كان موالياً للثقافة اليونانية – الرومانية. وكان بلغة عصرنا الحاضر (علمانياً). وهنا نقرر، اعتماداً على معظم الباحثين، أن (هيكل حَرَد)، هو (مُجمَّع أديان وثنيَّة)، لأبناء الشعب الفلسطيني (الوثني آنذاك)، يشتمل على عدّة أديان وثنية، ومنها دين (الإله يهوه) الوثني، وأنَّ هيكل حَرَدْ هو الهيكل الوحيد في تاريخ فلسطين ق.م. وقد دعم الآثاريون الأوروبيون هذا الرأي، حيث لم يثبتوا وجود أيّ هيكل آخر سواه، رغم أنَّهم نبشوا أرض القدس، وفتّشوا جهاتها كلها، دون جدوى. أمّا مصطلح (يهودي، يهودية)، فلم يظهر إلاّ في بداية القرن الثاني للميلاد، لكنَّ كمال الصليبي، يقول: «كان الرسولُ بولس الذي توفي عام 67 ميلادية، أوَّل من اشتقَّ لفظة اليهودية من اسم اليهود –

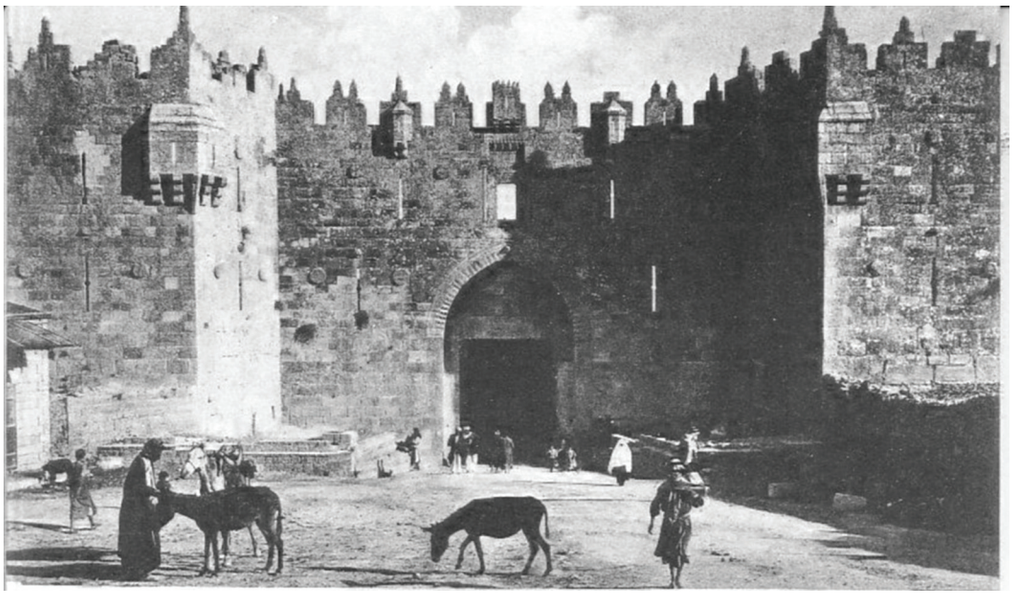

(ioudaioi) باليونانية، للدلالة على ديانتهم ولا توجد أية إشارة معروفة إلى اسم هذه الديانة قبل ذلك». وكان هيرودوت (أبو التاريخ) في القرن الخامس قبل الميلاد، قد زار فلسطين، ووصف سكانها بأنهم: (السوريون – سكّان فلسطين)، ولم يُشر لا من قريب ولا من بعيد أية إشارة، لوجود (يهوديين)، ولا إلى (يهوذيين). ويرى (ولكنسون) بأن الوضع الديني في فلسطين، عام 337م، أي في القرن الرابع الميلادي، كان كما يلي:

« 287 قرية فلسطينية كنعانية وثنية، و11 قرية فلسطينية يهويَّة، و3 قرى فلسطينية مسيحية، و6 قرى فلسطينية سامريّة»، نقلاً عن قائمة أوسابيوس العسقلاني.

* * *

لم تبدأ مأساة فلسطين عام 1882، حين تأسست أول مستوطنة يهودية، ولا في عام 1917، عندما صدر (وعد بلفور) البريطاني، بل بدأتْ مع (وعد نابليون بونابرت) الثقافي التزويري، الذي وزّعه في منشور شهير، وصل إلى أوروبا، ومصر وفلسطين، عام 1799، وأتبعه بمذبحة ارتكبها في مدينة يافا، التي قاومته مقاومةً باسلةً، بتاريخ 11/ 3/ 1799م)، راح ضحيّتها، (أكثرٍ من ألفي شهيد)، بينما خسر نابليون (1500 جندياً قتيلاً). وهكذا بدأ نابليون مذبحة يافا، بخطاب تاريخي مُزوَّر مليء بالأكاذيب. وفيما يلي: نصّ (وعد نابليون) الكامل:

«من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين:

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط. إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين – وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل – قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل في اللغة العبرية تعني: أسير الله أو عبد الله)، سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف. انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه. إن أمامكم حربا مهولة يخوضها

شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم ... لا بد من نسيان ذلك العار الذي أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزي الذي شل إرادتكم لألفي سنة. إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلية عن حقكم، ولهذا فإن (فرنسا) تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، وهي تفعل ذلك في هذا الوقت بالذات، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز. إن الجيش الذي أرسلتني (العناية الإلهية) به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقراً لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي استهانت طويلاً بمدينة داود وأذلتها.
يا ورثة فلسطين الشرعيين ..

إن الأمة الفرنسية التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء. انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوي شرفاً لأسبرطة وروما، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفي سنة، لم تفلح في قتل هذه الشجاعة. سارعوا! إن هذه هي اللحظة المناسبة – التي قد لا تتكرر لآلاف السنين – للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين، وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم يهوه، طبقاً لعقيدتكم، وافعلوا ذلك في العلن وافعلوه إلى الأبد) – التوقيع: نابليون بونابرت.

* * *

إذاً، ما هي قصة تاريخ فلسطين القديم، والحديث؟
إنَّها أضخم عملية تزوير في التاريخ، مارسها مستشرقون، وعلماء آثار، ومؤرخون توراتيون، ورجال دين، وعسكريون، ودبلوماسيون أوروبيون، منذ القرن الثامن عشر الميلادي، وحتى الآن. ثمَّ تعلّم بعض العرب في جامعات أوروبا، منهجيات حديثة على أيدي مستشرقين، فنقلوا هذه المعرفة المزوّرة إلى الجامعات العربية، حيث ما يزالون في دائرة ما أسمّيه (مصيدة الجدل مع التوراة). نعم، هناك (نظرية مؤامرة)، ولكنَّ هناك أيضاً (نظرية التعامي عن المؤامرة)، التي بدأ بكشفها علماء جدد منذ منتصف الثمانينات، وهم ما يزالون في مرحلة البداية للكشف عن (جبل الأكاذيب) الضخم، ومن بينهم: (توماس طومسون، كيث وايتلام، مارغريت شتاينر، ونيلز لمكة، وإنغريد هيلم، وغيرهم). كما ظهر تيار جديد من الآثاريين والمؤرخين العرب، يتصف بالبحث الجدّي النقدي، من بينهم: (معاوية إبراهيم، زيدان كفافي، محمود أبو طالب، سلطان المعاني، كمال الصليبي، زياد منى، فراس السوّاح، أحمد داوود، قاسم الشوّاف، خزعل الماجدي، سيّد القمني، وغيرهم). ولهم اجتهادات معقولة، لكنَّ (تاريخ القدس، وفلسطين) القديم، والحديث (الحقيقي)، لم يكتب حتى الآن، لأنّ (كمال الصليبي)، مثلاً، وهو مؤرخٌ رصين، نقل (التاريخ التوراتي) من فلسطين إلى عسير، وجنوب الحجاز، ثمَّ أعاد اليهود إلى فلسطين، عبر نظرية الهجرات الخاطئة من وجهة نظرنا، ومن ثم افترض أن فلسطين – كما نستنتج – كانت خاليةً من السكّان، والإشكالية الجوهرية، أنه غرق في رمال شبه الجزيرة العربية، دون أن يضع لنا تاريخاً حقيقياً لفلسطين.

القدسُ ...

عاصمةُ الشعب الفلسطيني الأبدية

أمّا المؤرخون التوراتيون، فقد صاغوا تاريخ القدس وفلسطين على مقاس التوراة الأسطورية، فالشعب الكنعاني الفلسطي عندهم، ليس له تاريخ، أما تاريخ فلسطين عندهم، فهو تاريخ (الطائفة اليهويَّة)، التي كانت تشكل (6%) من سكّان القدس، وصراعات أجنحتها المتناحرة!! يقول (كيث وايتلام): «كثيراً ما جرى إفراغ فلسطين والتاريخ الفلسطيني من أيّ معنى حقيقي، حيث جرى تجريدها من الصفة التاريخية». وهو يقول أيضاً: «ليس تاريخ اليهود في فلسطين، إلاّ لحظة قصيرة عابرة في تاريخ فلسطين الطويل».

وحتى عام نكبة فلسطين – 1948، لم تكن (الطائفة الفلسطينية اليهودية) الأصلية، التي جاءت سابقاً من أمكنة متعددة، تشكل سوى (7%) من أبناء الشعب الفلسطيني. ويؤكد الكاتب البريطاني آرثر كوستلر، أنَّ معظم يهود أوروبا وروسيا وأميركا، هم من يهود (إمبراطورية الخَزَر)، مثلما يؤكّد كمال الصليبي أنَّ (بني إسرءيل)، هم من قبائل جزيرة العرب التي انقرضت واندثرت، كما اندثرت قبائل عربية، مثل: طسم، وجديس، وثمود، وعاد (العرب البائدة).

وهكذا تواصل (دولة الثكنة المغلقة) النوويَّة الحديثة، احتلالها لفلسطين منذ عام 1948، و1967، ويواصل حُرَّاس الثكنة ارتكاب حرب الإبادة التدريجيّة: (دير ياسين، الطنطورا، الدوايمة، كفر قاسم، الحرم الإبراهيمي في الخليل، مخيم جنين، صبرا وشاتيلا، ومذبحة غزّة، وغيرها)، مُتوهمين أنهم سوف يقضون على ما يُسمّونه (القنبلة الديموغرافية الفلسطينية)، كما تلاشى الهنود الحُمر في أميركا، بسبب حروب الإبادة التي شُنَّت ضدَّهم!!. ويواصل حُرّاس الثكنة، تدمير البيوت، واغتيال البشر، واقتلاع الشجر في القدس، وفلسطين إضافة إلى (12 ألف أسير وأسيرة)، يقبعون في سجون دولة الثكنة. ويواصل حرّاس الثكنة، رفضهم لمئات القرارات الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة بشأن القدس وفلسطين. وفي المقابل، يقاوم أبناء الشعب الفلسطيني العظيم، مقاومةً باسلة، بشتى الوسائل الممكنة من أجل حريتهم، واستقلالهم، وإقامة دولتهم الفلسطينية المستقلة على تراب وطنهم، وعاصمتها الأبديَّة، (القدس). يقاومون منذ أكثر من قرن وربع القرن (1882 – 2009). وكأنَّ هذا الشعب، حالة خاصة وحيدة في العالم الحديث كله، الذي تحرَّر من الاستعمار.

مع هذا كله، فإنَّ (القدس)، هي عاصمة العرب والمسلمين، وعاصمة العالم الروحية، وقبل كل شيء، هي عاصمة الشعب الفلسطيني الأبديَّة، لأن (دولة الثكنة) دولة غير طبيعية، وهي (حالة الاحتلال الاستيطاني الوحيد) في العالم الحديث.